الفصل السابع

أثر الخلافات المذهبية على الفكر الإسلامي

- دور المدارس في نشر وترويج الفكر الإسلامي.
- دور بلاط السلاطين والأمراء في احتضان العلوم.
- صمود الفلسفة الإسلامية بالرغم من محاولة قمعها.

بعدما أنهينا الحديث في الفصول السابقة عن الصراعات الاجتماعية والمذهبية بكل ما حوت من أسباب متعلقة بالواقع السياسي والاقتصادي، والتي أسفرت عن عدة نتائج هامة يجدر بنا أن نشير إليها في مبحث خاص بذاته ألا وهو أثر تلك الصراعات على الفكر الإسلامي، هل تقدم الفكر الإسلامي أو تخلفه مرتبط بالصراعات الاجتماعية والمذهبية أم لا ؟ ولماذا ؟. ونحن نرى أن ذلك المبحث يعتبر هو خاتمة هذا البحث والذي يحوى عدة نتائج هامة يجب ألا يتم غض الطرف عنها.

دور المدارس والمكتبات في نشر وترويج الفكر الإسلامي :

لقد لعبت المدارس دوراً هاماً جداً في نشر وترويج الأفكار الإسلامية بصفة عامة وعلى مختلف المذاهب، لكن قبل ولوج تفاصيل الدور الذي لعبته المدارس يجب أن نشير إلى أسباب إنشاء تلك المدارس، والأسباب هنا متعلقة بما ذكرناه تفصيلاً في الفصول السابقة، من ناحية التعصب المذهبي القائم من قبل الخلافة العباسية وحراسها في المشرق الإسلامي كالدولة السامانية والغزنوية والسجلوقية المعتنقين للمذهب السني، وعلى الجانب الآخر أيضاً الشيعة سواء الزيدية أو الإسماعيلية والمعتزلة، حيث رأى المعسكر السني ضرورة اتخاذ أيديولوجية فكرية – بجانب أساليب القمع – لمجابهة المعسكر الشيعي أو المعتزلي، ومن ثم كانت إنشاء المدارس ضرورة قصوى لمواجهة الفكر الشيعي ولاسيما بعد نجاح النشاط الشيعي الذي أسفر عن قيام كيانات سياسية كبرى مثل الدولة الزيدية والدولة البويهية بجانب الخلافة الفاطمية.

فضلاً عن ذلك الخلاف المذهبي بين المذاهب السنية نفسها خصوصاً بين الأحناف والشافعية، وتصارع الأمراء والسلاطين على بناء المدارس لكلا الفريقين، وبالطبع يعود النفع على الأمراء والسلاطين لكي يضمنوا ولاء فقهاء السنة لهم، ولعل هذا يبرز العامل السياسي لبناء وإنشاء المدارس، بعد اكتساب فقهاء السنة نفوذاً سياسياً واجتماعياً من ناحية حيازة الثروات والضياع فبالتالي ولاؤهم للسلطان، وهذا ما ظهر بأجلى صوره في عهد

السلطان محمود الغزنوى وأيضاً في عهد السلاجقة الأتراك ولاسيما بعد مجيء الوزير نظام الملك وسيطرة المذهب الأشعري، والآن نحاول عرض تاريخ إنشاء المدارس وأماكن إنشائها والدور الذي لعبته.

لقد اشتهرت مدينة نيسابور بنشاطها العلمي وتعتبر أول مدينة سبقت إلى تأسيس المدارس، بجانب أنها تحوى أكثر من عشرين مدرسة علمية وغيرها من عشرات المساجد ومراكز الصوفية والمكتبات، مما أدى إلى اندفاع الكثير من سائر البلاد الإسلامية للانتقال إليها والترحال[1].

وقد اختلف حول نشأة أول مدرسة في نيسابور بل وفي خراسان نفسها، وأصل هذه المدارس أيضاً، فقد أشار بارتولد[2] إلى أثر البوذية في إنشاء المدارس وقال بأنها تقليد (للنوبهار) أو (Vihara) ودلل على ذلك أن المدارس ظهرت أول الأمر في شرق العالم الإسلامي، ولم تظهر في غرب بلاد فارس أو في بغداد إلا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

إلا أننا نرى مبالغة في رأى بارتولد خصوصاً تأثير البوذية في فكرة إنشاء المدارس، لاسيما أن أول مدرسة في الإسلام تعتبر جامع المدينة المنورة أو المسجد النبوي في عهد الرسول الذي علم المسلمين تعاليم الدين سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً، أي أنه كان مدرسة شاملة، لكن ليس مدرسة بالمعنى الاصطلاحي، بالإضافة إلى أن رأى بارتولد القائل بأن هذه المدارس كانت مستقلة عن تدبير الحكومات وسياستها قابل للمناقشة ؛ حيث هذه المدارس – كما سنرى فيما بعد – أنشئت بإيعاز من السلاطين والأمراء لأهداف سياسية ومذهبية وأبرزها تلك التي أمر بإنشائها نظام الملك والمشهورة باسم النظاميات.

---

(١) الحافظ أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي، تاريخ نيسابور، ط قم، ١٤٠٣ هـ.ق – ١٣٦٢ هـ.ش، ص١.

(٢) تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص٥٨

ويرى شوقي ضيف[1] أن أول مدرسة بنيت بمدينة نيسابور في منتصف القرن الرابع الهجري كانت مدرسة "أبى حفص الفقيه" وكان يدرس بها للطلاب الفقيه الحنفي ابن شاهويه*(ت:٣٦١ هـ / ٩٧١ م) ، لكن لم يحدد تاريخ بنائها، ومن ناحية أخرى نجد عند المؤرخ ناجى معروف[2] قائمة بمدارس وجدت في نيسابور تأسست على يد العلماء العرب بل وأنشئت قبل مدارس نظام الملك بأكثر من ١٦٥ عام، وقد بناها علماء عرب مشهورون في خراسان وما وراء النهر مثل:

- مدرسة "حسان بن محمد الأموي القرشي" المعروف بأبي الوليد النيسابورى أنشئت بنيسابور قبل ٣٤٩هـ - ٩٦٠م.
- مدرسة "ابن حبان التميمي البستى" ٣٥٤هـ - ٩٦٥م.
- المدرسة "الصاعدية" عام ٤٠٢ هـ - ١٠١١م.
- مدرسة "سهل الصعلوكى العجلى" ٤٠٤ هـ - ١٠١٣م.
- مدرسة "أبى عثمان الصابوني" ٤٠٥هـ - ١٠١٤م.
- مدرسة "ابن فورك الأنصاري" ٤٠٦هـ - ١٠١٥م.
- مدرسة "ابن ناضرة الأسدي" ببوشنج ٤٥٠هـ - ١٠٥٨م.
- المدرسة القشيرية قبل عام ٤٦٥هـ - ١٠٧٢م.

هذا فضلاً عن مدارس أخرى أنشأها العلماء العرب أنفسهم أو أنشئت لهم في خراسان، وكانت الدراسة باللغة العربية في المدارس التي أنشأها العلماء المسلمون بالمشرق الإسلامي سواء كانوا من العرب أرومة أو بالولاء[3]، ثم كثر بناء المدارس في النصف الأول من القرن الخامس الهجري مثل المدرسة البيهقية التي بناها الإمام "أبو الحسن محمد بن شعيب البيهقى" مفتى الشافعية

---

(٣) عصر الدول والإمارات، ج ٤، ص٥٢٢

* ابن شاهويه: هو من فقهاء الحنفية وجمع الفقه وعلم الحساب، وقد تولي قضاء فارس، وتوفي عام ٣٦١هـ. (أنظر: بن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، صـ٣٤٨)

(١) علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي، ط١ . مطبعة الإرشاد - بغداد ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣ م، ص٤

(٢) ناجى معروف، المرجع السابق، ص٥

بنيسابور[1]، وأيضاً مدرسة الاستراباذى (ت:٤٤٠هـ/١٠٥٧م) التي بنيت لأصحاب المذهب الشافعي، والمدرسة السعدية التي بناها الأمير نصر بن سبكتكين عام ٣٨٩هـ/٩٩٩م[2].

وقد أنشئت المدارس في المشرق الإسلامي عموماً أحادية المذهب أي لم توجد مدارس ثنائية مشتركة بين مذهبين ولا ثلاثية ولا رباعية[3].

والآن نلقى الضوء على بعض النظاميات الموجودة بخراسان والتي بنيت على غرار نظامية بغداد التي أسسها الوزير نظام الملك عام ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م.

- نظامية مرو:

وكان في نظامية مرو خزانة كتب وضعها نظام الملك تحوى الكثير من الكتب والمصادر تشتمل العلوم الإسلامية في مختلف المذاهب السنية، وقد درس فيها أغلب الأسرة السمعانية ومن أشهر رجالها "أبو المظفر السمعانى التميمى" ت : ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م. وهو منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعانى المروزى فقيه على المذهب الحنفي، أخذ الفقه الحنفي عن أبيه وبقى حنفياً يدرس ويناظر وقدم إلى نيسابور وحضر مجالس وحضر مجالس إمام الحرمين أبي المعالي الجوينى ثم تحول إلى المذهب الشافعي عام ٤٥٠ هـ/ ١٠١١م، واضطرب لذلك أهل مرو وتشوش العامة[4].

نستنتج من هذا النص دلاله واضحة على أن المذهبين السنيين الحنفي والشافعي كانا في صراع دائم ومدى ارتباط ذلك بالعامة من الناس.

- نظامية هرات:

من أشهر علمائها "أبو بكر الشاشى" (ت:٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م) وهو محمد

---

(٣) ذبيح الله صفا، تاريخ ادبيات در ايران، تهران1334هـ. ش، ج١، ص٢٦٥

(٤) شوقي ضيف، المرجع السابق، ج ٤، ص٥٢٣

(١) ناجى معروف، نفس المرجع، ص٢٢٢

(٢) ناجى معروف، نفسه، ص٦١،٦٣

بن على بن حامد الإمام وكان يدرس بهرات على المذهب الشافعي[١].

وهناك أيضاً وجدت مدارس للعلوم بمدينة بلخ التي اشتهرت بمقامات الطلاب والأرزاق جارية على من طلب العلم، ساعد على ذلك أن بلخ أثرى مدينة حيث بها مياسير التجار وأراضى زراعية خصبة يمتلكها الأغنياء[٢].

كذلك يصف الإصطخرى[٣] أهل بلخ ومرو بأنهم أنجب أهل خراسان في الفقه والدين والنظر والكلام، وكانت لفقهاء خراسان طريقة خاصة في الفقه تعرف بهم وكان يقابلها الطريقة العراقية، ويرى ابن خلكان أن أول من جمع بين الطريقتين هو "أبو على الحسين السخى" من كبار تلامذة "أبى بكر القفال المروزى" وهو من كبار الفقهاء الشافعيين في خراسان وصاحب مؤلفات قيمة في الفقه، وأن أول من وضع علم الخلاف الفقيه "أبو زيد عبد الله الدبوسى" وهو فقيه على المذهب الحنفي الذي كان يقيم ببخارى وتوفى هناك عام (٤٣٠هـ / ١٠٣٨م)[٤].

بعد أن وضحنا دور المدارس في نشر وترويج الفكر الإسلامى، جاء دور آخر للمكتبات التي انتشرت بشدة منذ أوائل القرن الرابع الهجري والتي أسهمت بدور كبير للغاية في انتشار العلوم والفكر سواء في الدويلات السنية أو الشيعية كالبويهية والفاطمية.

فقد تزايد الاهتمام بالمكتبات العامة حيث وجدت مكتبات الوراقين التي تعرض فيها الكتب للبيع، وكانت تتكاثر في المدن الكبيرة حتى تصبح سوقاً مستقلاً وكانت هناك مكتبات عامة للدولة وأيضاً في كل جامع كبير مكتبة تضم ما يفقه العلماء على طلاب العلم في الجوامع[٥] مثل مكتبة جامع نيسابور الكبيرة والتي تعود جذورها إلى القرن الخامس الهجري[٦].

---

(٣) ناجي معروف، علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي، ص٦٥

(٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٤٨٣

(١) الاصطخرى، المسالك والممالك، ص١٥٨

(٢) محمد محمدي، الأدب الفارسي، ص١٥٩– ١٦٠

(٣) شوقى ضيف، المرجع السابق، ج٤، ص٥٢٣

(٤) يحيى الساعاتي، الوقف وبنية المكتبة العربية (استبطان للموروث الثقافى)، ط٢ . مركز الملك

فضلاً عن وجود رعاه للعلم يبنون المكتبات للطلاب ومثال شهير على ذلك أن الفقيه "ابن حبان البستى" ت : ٣٥٤هـ / ٩٦٥م بنى بنيسابور خزانة كتب ومساكن لطلاب العلم الغرباء وأجرى لهم الرواتب[١].

كذلك وقد شغف البويهيون بالكتب وجمعها واتخاذ مكتبات خاصة لأنفسهم وكان لديهم من ذلك ثلاث مكتبات كبيرة، أولها مكتبة عضد الدولة البويهى، والثانية مكتبة وزيره "ابن العميد" وكانت أكبر من السابقة، وأما الثالثة مكتبة "الصاحب بن عباد" وزير مؤيد الدولة بالري، ويقال أنها أضعاف مكتبة ابن العميد[٢].

ويذكر أن الأمير نوح بن منصور السامانى أمير خراسان قد أرسل إلى "الصاحب بن عباد" وزير مؤيد الدولة البويهى في السر يستدعيه ويرغبه في خدمته، فاعتذر له الصاحب بداعي أن لديه من كتب العلم ما يحمل على ٤٠٠ جمل أو أكثر، وأيضاً جعل مكتبته وقفيه عامة وتاريخ وقفها ٣٨٥هـ / ٩٩٥م وهى السنة التي توفى فيها الصاحب[٣].

وهناك سبب آخر ساعد على انتشار العلم وترويجه وهو تنقل العلماء والرواة في أقاليم المشرق الإسلامي مما أضفى سيولة على الجانب الثقافي فمثلاً هناك من روى بجرجان عن جماعة من أهل الري وهرات، ولاسيما أن السلطان محمود الغزنوى يبعث لهم من سائر الأمصار مثل : "أبي سعد حمد بن منصور بن الحسن الجولكى" الذي كان رئيساً لعلماء جرجان وقد جاء إلى غرنة حاضرة السلطنة الغزنوية[٤].

- دور بلاط السلاطين والأمراء في احتضان العلوم :

لقد كان لبلاط السلاطين والأمراء في المشرق الإسلامي دور هام في نقل

فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية - الرياض ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ص٦٧

(٥) شوقى ضيف، نفسه، ج٢، ص٥٢٤

(١) نفسه، نفسه، نفس الجزء، ص٥٢٤

(٢) يحيى الساعاتي، المرجع السابق، ص٤٠

(٣) السهمي، تاريخ جرجان، ط٢ . عالم الكتب – بيروت ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، ص٣٢٨

ونشر الفكر الإسلامي بمختلف أنواعه فضلاً عن احتضانهم للعلماء والفقهاء، ومن ثم جرت صراعات ومناظرات ومناقشات علمية يحاول كل فريق إثبات وجهة نظره ونشر مذهبه، بالإضافة إلى سبب آخر لا يمكن إغفاله وهو سبب سياسي جعل كل أمير أو سلطان يلجأ لجذب العلماء إلى بلاطه، فترتب عليه أحداث مرتبطة بنواحٍ مذهبية واجتماعية.

والآن نلقى الضوء على هذا الدور الذى لعبه بلاط السلاطين والأمراء في خراسان خاصة والمشرق الإسلامي عامة، ولنبدأ بالبلاط السامانى الذي تغلب عليه النزعة القومية الفارسية.

لقد كان لتأثير النزعة الفارسية الواضحة أن بلاط هؤلاء الأمراء السامانيين يعتبر من أهم المراكز التي جذبت الناظمين بالشعر الفارسي سواء في خراسان أو بخارى[١]، ومن أشهر حكام الدولة السامانية الذين عرفوا باهتماماتهم بالعلم وتقديرهم للعلماء وشغفهم بالكتب والمؤلفات "نوح بن نصر السامانى" الذي كان من أدباء أمراء السامانيين[٢].

ومنهم أيضاً الأمير "إسماعيل بن أحمد" الذي كان يحسن إلى محمد بن نصر المروزى وهو أحد العلماء ولفقهاء وله مؤلفات كثيرة وهو من أفقه علماء نيسابور[٣].

حيث كان الأمير إسماعيل بن أحمد السامانى يصل محمد نصر المروروزى في كل عام ٤٠٠٠ درهم، فضلاً عن الأمير "نصر بن أحمد" الذي أولى العلم عنايته واهتمامه، حتى ألف له الطيب الطاهرى كتاب "أدب النفوس"[٤].

---

(١) حسن أحمد، الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى، ص٧٠

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ٨، ط. دار الكتب العلمية –بيروت ١٩٩٣م، ص١٧٨

(٣) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ط. دار الكتب العلمية-بيروت ١٩٨٦م ، جـ٩ ص٣١٧،٣١٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١١، ص١٠٢

(٤) الثعالبي، يتيمة الدهر، تحقيق : مفيد محمد قميحة، ط١ دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ج٤، ص ٢٧٩ ؛ هاله شاكر، دور وخزائن الكتب في المشرق الإسلامي منذ عصر

وقد كان "أبو بكر محمد بن زكريا الرازى" – وهو من أشهر الأطباء وله ما يزيد على مائة مؤلف في الطب – من أبرز العلماء الذين حرص السامانيون المعاصرون له على الاستفادة من علمه، وكانت بينه وبين "منصور بن إسماعيل السامانى" صداقة فألف له الرازي كتاب "المنصوري"، وألف أيضاً كتاب "القصد" للأمير أبى على أحمد بن إسماعيل السامانى[1].

ويذكر أيضاً ابن كثير[2] استضافة الأمير نوح بن نصر السامانى للطبيب الفيلسوف ابن سينا (٣٧٠ – ٤٢٨هـ)، وذلك لأن الأمير كان يعانى من مرض فعالجه ابن سينا، إضافة إلى أنه أثرى البلاط السامانى بعلمه وإبداعاته، فأغدق عليه الأمير نوح العديد من الهدايا، وكون له مكتبة ضخمة تحوى الكثير من العلوم.

هذا بالإضافة إلى ميزة تميز بها البلاط السامانى ألا وهى مجالس عقد للمناظرة بين يدى الأمراء، فكان الأمير يسأل المسألة ثم يتكلمون عليها ولكن في مذاهب أهل السنة فقط[3]. لأنه بالطبع لم يكن باستطاعة الأمراء السنيين مناقشة أى مذهب معارض مثل الشيعة والمعتزلة، ولعل المناظرات التي كانت تجرى بين المذهبين الحنفي والشافعي تزيد من حدة الصراع بينهما ولاسيما أن السلطة السامانية متمذهبة بالمذهب السني الحنفي.

ولم يختلف الأمر بالنسبة للبلاط الغزنوى الذي استطاع جذب العلماء والشعراء إليه ولاسيما في عهد السلطان محمود الغزنوى الذي جعل بلاط خراسان وغزنة من أروع المراكز الثقافية والعلمية في المشرق الإسلامي، وإن كان لنا رأى آخر في مسألة جذب العلماء سنناقشها فيما بعد.

المأمون حتى القرن السابع الهجرى، رسالة دكتوراه، إشراف : سيدة الكاشف – كلية البنات - عين شمس، ط١ . القاهرة ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، ص٦٧

(٥) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٣٨٢

(٦) البداية والنهاية، ج ١٢، ص٣٩

(١) المقدسى، أحسن القاسيم، ص٣٣٩

لقد حرص السلطان محمود الغزنوى على استقدام العلماء والفقهاء السنيين وذلك بالطبع لمحاربة الفكر المعارض المتمثل في الشيعة والمعتزلة، ومن ضمن العلماء الذين كانوا يحضرون مجلسه "على بن عبد الله النيسابورى" الذي استقدمه السلطان محمود عام ٤١٤هـ / ١٠٢٣م للسماع منه، وأيضاً استطاع استقدام "الاستغداديزى" وهو عالم وأديب (ت : ٤٣٩هـ / ١٠٤٧م) والذي كان فيما بعد مؤدباً لأولاده[١].

لكن أهذا يكفى لأن نقول بأن عصر السلطان محمود الغزنوى هو عصر حرية الفكر ؟ هناك أحد المؤرخين[٢] قد قال بأن عهد السلطان محمود من ألمع العهود إذ جعل غزنة من أروع المراكز الثقافية، وأن بلاطه ملاذً لمشاهير العلماء والأدباء، وتألق في عهده نجم كثير من الفلاسفة والشعراء أمثال البيرونى والفردوسى والدقيقى.

وقد ذهب باحث آخر[٣] إلى القول بأن النشاط العلمي الذي ظهر على أيام السلطان محمود الغزنوى بواسطة التخويف لا الترغيب، بحيث يجعل مركزه في قصره وترنو إليه الأبصار وتشخص إليه الأنظار، حيث يعتبر محمود الغزنوى من كبار الخاطفين لرجال العلم والآداب والفنون وكثيراً ما كان يعاملهم في النهاية معاملة تنطوى على كثير من الازدراء والامتهان، ولم يكن بين رجال العلم في زمانه أفضل من "ابن سينا" و "البيرونى" وكان الاثنان يعيشان مع زمرة منتخبة من رجال العلم والأدب مثل الفيلسوف "أبى سهل المسيحي" والطبيب "أبى الخير الحسن بن الخمار"، والرياضي "أبى نصر بن العراق".

بالإضافة إلى أنه بعد إغارة السلطان محمود الغزنوى على أملاك

---

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ١٣، ص٢٧٦ ؛ هالة شاكر : دور الكتب والخزائن في المشرق الإسلامي، ص٧٠

(٣) سيد أمير على، مختصر تاريخ العرب، ط١ . دار العلم للملايين – بيروت ١٩٦١م، ص٢٦٩

(١) ادوارد جرانفيل براون، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ج٢، ص١١٠– ١١١

الخوارزميين(*) عام ٤٠٨هـ /١٠١٧م بعث السلطان محمود إلى "مأمون بن مأمون" (ت : ٤٠٧ هـ/١٠١٦م) أمير خوارزم يقول فيها : "لقد سمعت أن جماعة من رجال العلم يقومون على خدمة أمير خورازم مثل فلان وفلان وكل واحد منهم قد أصبح نسجاً وحده وبرز في عمله، ومن الواجب عليك أن ترسلهم جميعاً إلى قصري حتى يتشرفوا بلقائي، فنحن نرجو أن ننتفع بعلمهم وفنهم، ونرجو أن يحقق لنا أمير خوارزم هذه الرغبة التي أبديناها ..... [١].

فهذا الخطاب على ظاهره معتدل اللهجة، ولكنه في الحقيقة كان مجرد أمر من محمود إلى الأمير مأمون بأن يبعث إليه بمن لديه من رجال العلم والأدب، فأبدى ثلاثة من الرجال وهم البيروني والخمار والعراق رغبتهم في الذهاب، بينما رفض ابن سينا وهرب إلى ابيورد ثم طوس فنيسابور ومنها إلى جرجان، وكان يتولاها في ذلك الوقت رجل العلم والأدب شمس المعالي قابوس بن وشمكير بن زيار" (٣٦٨-٤٠٣هـ/٩٧٧ -١٠١٢م)[٢].

يتضح من تلك النصوص الواردة عن جذب السلطان محمود الغزنوى للعلماء والأدباء أنه بالفعل أراد الشهرة والإعلام عن أنه رجل علم راعى العلماء والأدباء، بالإضافة إلى استغلال هؤلاء العلماء لمحاربة معارضي السلطة، إلا أن هناك بعض العلماء تمت معاملتهم بشكل سيئ مثل البيرونى ووفقاً لما ذكره كراتشكوفسكى[٣] عن إصرار محمود الغزنوى على أخذ البيرونى معه إلى غزنة عام (٤٠٨ هـ / ١٠١٧م) بوصفه عنصراً لا يطمأن إليه، وتكاد لا تحلو مصنفاته المتأخرة بأجمعها من الشكوى المرة لما يلاقيه

(*) الخوارزميين : هم أسرة المأمونيين ولاة خوارزم وقد حكمت هذه الأسرة بلاد خوارزم ومن هنا سميت بالخوارمشاهيين وبدأوا حياتهم كولاة تابعيين للسامانيين، وفى الفترة بين سقوط الدولة السامانية وقيام الدولة الغزنوية كانوا شبه مستقلين ثم عادوا حكاماً تحت حماية الغزنويين وأول ولاتهم كان "مأمون بن محمد بن خوارزمشاه" وقد ابتدأ حياته والياً على جرجانيه ثم (ت : ٣٨٧ هـ) (انظر: النظامي العروض السمر قندى، جهار مقاله، ص١٦٧) .

(٢) ادوارد براون، المرجع السابق، ج ٢، ص١٢

(١) براون، نفسه، نفس الجزء، ص١١٢

(٢) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج١، ص٢٤٦

من سوء التقدير ولمصيره الشخصي، لاسيما أن البيروني عرف عنه في تلك الفترة معاناته من شظف العيش.

أما عن عصر الدولة البويهية وهم شيعة زيدية، فقد كان أمراء بني بويه من المهتمين بالعلوم العقلية، حيث بلاطهم كان مقصداً للمشتغلين بهذه الدراسات، وقد آوى إليهم ابن سينا بعد فراره من سطوة محمود الغزنوى، وعندهم وجد الراحة والفرصة لتأليف كثير من مؤلفاته القيمة الموجودة حتى الآن[١].

فهناك رأى يقول بتشيع الفيلسوف ابن سينا وأن تشيعه هذا بسبب اضطهاد السلطان محمود الغزنوى له حيث يقول ابن سينا حاكياً عن أبيه : "وكان أبى ممن أجاب داعي المصريين ويعد من الإسماعيلية وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه[٢].

من الواضح أن هذا النص يشى بتشيع ابن سينا على المذهب الإسماعيلى وتعاليمه عن طريق أبيه، وبالفعل انعكس ذلك على أفكاره.

كذلك وزراء الديلميين ورجال حاشيتهم من هواة العلم والفلسفة مثل "أبي على ابن سوار" كاتب عضد الدولة البويهى الذي أنشأ في البصرة مكتبة، ومدرسة للمعتزلة[٣].

فلعل هذا يفسر التقارب الفكري بين الشيعة والمعتزلة ولاسيما أن المذهبين يتمتعان بأعمال العقل وحرية الفكر والتطور والتجديد.

وعلى نفس النهج صار الفاطميون في رعاية العلماء والعلم وبناء المدارس والمكتبات، والجدير بالذكر أن العلماء في البلاد الخارجة عن النفوذ الفاطمي وخصوصا الذين كانوا يعانون من الفقر، أرسل إليهم الفاطميون يستدعونهم إليهم ويضمنون لهم العيش الكريم، بل والذي يدعو إلى الإعجاب

---

(٣) محمد محمدى، الأدب الفارسي، ص١٦٣

(٤) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص٤٣٧

(١) محمد محمدي، المرجع السابق، ص١٦٣

بالفاطميين أن بعض العلماء الذين استدعوهم أو وفدوا إليهم ووفروا لهم التفرغ للعلم كانوا على غير مذهب الفاطميين[1]، لكن هناك بعض العلماء عملوا لحساب الفاطميين مثل اتصال الرحالة ابن حوقل بهم، وفى هذا الصدد ذكر المستشرق الهولندي "دوزى" أن هذا الرحالة كان يتجسس ويعمل لحساب الفاطميين في الأندلس[2].

خلاصة القول أن لبلاط الأمراء والسلاطين دوراً هاماً في نشر وترويح الفكر الإسلامي، بالرغم من أن المصالح السياسية والاقتصادية هي الهدف الأساسي من اهتمام الأمراء والسلاطين في جذب العلماء والمفكرين خصوصاً الدويلات السنية مثل السامانيين أو الغزنويين أو السلاجقة، لكن مع أغراض الأمراء والسلاطين في ذلك، فقد أبدع العلماء والمفكرون في إخراج كل ما لديهم من فكر لإثراء الحضارة الإسلامية، وبالرغم أيضاً من التعصب المذهبي الموجود استطاع العلماء غير السنيين في إثراء الفكر الإسلامي.

- صمود الفلسفة الإسلامية بالرغم من محاولة قمعها :

ننتقل الآن إلى الحديث عن نقطة نحن نرى أنها في غاية الأهمية ؛ لأن الحديث عن الفلسفة كفكر مختص بذاته ليس بمنأى عن تلك الجوانب ؛ لذا فلنحاول الإجابة عن تساؤل مهم هل صمدت الفلسفة بصبغتها الإسلامية أم لا ؟ وما هي حيثيات صمودها ؟

بداية لا بد أن نشير إلى خلفية فكرية هام[illegible] ينطوي على كثير من الأفكار التي زادت وطورت من الفكر والثقافة الإسلامية بل وتسببت في زيادة صراع المذاهب المختلفة ولاسيما ضد المعتزلة – الذي سيأتي ذكرهم فيما بعد- وهم رواد التفكير العقلاني.

وقد عرف الغزالي[3] (ت : ٥٠٥ هـ / ١١١١ م) علم الكلام بأن غرضه

---

(٢) حسن الأمين، دائرة المعارف الشيعة، ج ١٢، ط دار التعارف – بيروت ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، ص١٥٨،١٥٩.

(٣) زكى محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص٤١

(١) المنقذ من الضلال، ط المطبعة الميمنية . مصر ١٣٠٩هـ، ص٦ – ٧

حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة ؛ فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين وحرك دواعيهم لنصرة السنة بالكلام يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة، ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصوصهم.

وتعريف ابن خلدون[1] (ت : ٨٠٦هـ / ١٤٠٦م) لعلم الكلام نجده ملائم لتعريف الغزالي، حيث يقول : "علم الكلام هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة.

إننا نلاحظ شيئاً هاماً في تعريف الغزالي لعلم الكلام ألا وهو "استناد المتكلمين أو اعتمادهم على مقدمات تسلموها من خصوصهم"، ما معنى هذا الكلام ؟ المعنى هو الاعتماد على البراهين العقلية والأدلة العقلية في تفسير الأشياء وتدعيمها للكتاب والسنة، وهى أهم سمة تميز المعتزلة وهم المقصودون بالخصوم في كلام الغزالي، ولاسيما أن الغزالي متبع المذهب الأشعري، والأشعري نفسه كان من تلاميذ الجبائى المعتزلى أي أن المذهب الأشعري اكتسب سمة مهمة وهى النظر العقلي، لكن لم يعملها بالشكل المطلوب ؛ لأنه أصبح مذهباً سياسياً مذهب الخلافة العباسية ضمنياً وأصبح مرتبطاً بالمصالح السياسية والاقتصادية، فبالتالي كان الهدف هو القمع الفكري للمعتزلة الذين أطلقوا العنان للعقل فأثرى الفكر الإسلامي، وبالتالي أصبح المذهب الأشعري غطاء أيديولوجي للنظام الإقطاعى الموجود وازداد في عهد السلاجقة الأتراك ومثله الإمام الغزالي.

أي أن الأشعري أنشئوا علم كلام خاصاً بهم لمواجهة فكر المعتزلة الذين ابتكروا علم الكلام لإزالة اللاهوتية والنصية الأثرية عن الفكر الإسلامي وإطلاق حرية العقل.

---

(٢) المقدمة، ص٥٥١

وفي هذا الصدد يفرق أبو حيان التوحيدي[1] بين طريقة المتكلمين والفلاسفة، بأن المتكلمين هم الذين استخدموا الجدل وتوظيف الفلسفة لخدمة الدين، والحديث بشيء من العقل والمنطق لكن استخدامهم محدود بالنسبة للعقل فهم نقليون أو نصيون أكثر، أما الفلاسفة فهم يحكمون العقل في جميع آرائهم ومناقشاتهم ويطلق عليه ترتيب العقل الطبيعي.

وكانت خلافة المتوكل(٢٣٢- ٢٤٧هـ/ ٨٤٦ – ٨٦١م) خاتمة لعصر حافل بالأداء والمبادئ وفاتحة لعصر آخر قيدت فيه الآراء والأفكار وفتحت فيه السلطة للمحافظين من الفقهاء والمحدثين[2]، وكذلك بعد أن بويع الخليفة المعتضد العباسي (٢٧٩ – ٢٨٩هـ / ٨٩٢ – ٩٠١م) أصدر قراراً بمنع الوراقين من بيع كتب الفلاسفة وما شاكلها ومن يفعل يحبس ويعذب[3].

كذلك سار على نفس النهج الخليفة القادر بالله وبوصفه زعيماً دينياً روحياً للخلافة كان يترأس اجتماعات الفقهاء الذين كانوا يصدرون الفتاوى بتكفير الفاطميين الشيعة وتحريم حرية الفكر، فضلاً عن أن الخليفة نفسه وضع بعض الكتيبات يهاجم فيها المعتزلة والمذهب العقلى[4].

يتضح من النصوص السابقة أن الخلافة العباسية أخذت على عاتقها محاربة الفكر الفلسفي والنظر العقلي بمساعدة فقهاء السنة المرتبطين بالسلطة، وهذا بالطبع لم يخل من الدوافع السياسية والاجتماعية الموجودة، علماً بأن العصر العباسي الثاني أطلق عليه عصر تسلط الأتراك وفقدان الخلافة هيبتها، وهذا بجانب النمط الإقطاعي الذي ساد المشرق الإسلامي عموماً، جعل هناك منظرين للمذهب الأشعري الذي أصبح الغطاء الفكري للنظام الإقطاعي.

---

(١) المقابسات، تحقيق : حسن السندوبى، ط١ . دار المعارف (سوسة تونس) ١٩٩١م، ص١١٥ (المقابسة ٤٨).

(٢) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج٢، ص٤٨

(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٣٧ ؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج٢، ص١٧٢

(٤) سيد أمير على، مختصر تاريخ العرب، ص٢٦٨

فلم يخطئ فيليب حتى[1] حين قال بمبدأ (بلا كيف) الذي نتج عن الفكر الأشعري وهو يقضى على حرية الفكر وأخمدها وأوقف البحث العلمي، وقد كان الغرض من المدرسة النظامية التي أسسها الوزير السلجوقي نظام الملك نشر المذهب الأشعري، بعد سيادة نظام الإقطاع العسكري.

وأيضاً في هذا الصدد يرد السيد محسن الأمين[2] على قول الذهبي – وهو أحد فقهاء السنة – حين وصف الذهبى علم الكلام والمنطق بأنه علم متردٍ وضد الدين، وقد جاء رد السيد محسن الأمين بأن الدين هو الذي حث على العلم والنظر والاستدلال، فالذهبي وغيره إنما يتبعون فيها قول الأشعري . وحسبنا مقولة الحسن البصري بأن العقل هو الذي يدفع إلى الجنة ويحمى من النار[3].

إذن أصبح الصراع الآن ضد المعتزلة وضد الفلسفة التي أصبحت في محنة حقيقية، ولاسيما أن تكاتفت الخلافة مع الدويلات السنية في المشرق ضد كل ثوري معارض يتبنى فكر حر مثل المعتزلة والشيعة وخصوصاً الزيدية والإسماعيلية.

وقد وفق بطروشوفسكى[4] في قوله بأن الصراع مع المعتزلة وفلاسفة الإرادة الحرة حتم على أهل السنة استخدام أصول ثابتة جديدة، فلم يكتفوا بمعاقبة المعارضين ومطاردتهم فحسب بل استخدموا سلاح الفكر والعقيدة ضدهم، ورغم هذا فإن اندفاع تيار التكامل الإقطاعي في أقطار الخلافة كان السبب الأصلي في ظهور علم إلهيات جديد عند السنة.

لكن قبل ولوج موضوع صمود الفلسفة في وجه السلطة العباسية ومعاونيها يجب أن تشير إلى شيء هام ألا وهو وجه التناقض بين نظام

---

(١) تاريخ العرب، ص٥٠٣

(٢) أعيان الشيعة، ج١، ص١٧٢

(٣) السيوطي، تحفة المجالس ونزهة المجالس، ط١، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٣٦هـ - ١٩٠٨م، ص٥

(٤) الإسلام في إيران، ص١٤٧

السلطة المائل للإقطاعية واعتناقهم في نفس مذهب أبى حنيفة الحر حتى ولو اسماً فقط.

نقول أن المذهب الحنفي قد ساد معظم أقاليم المشرق الإسلامي بالرغم من تعبير مذهب أبى حنيفة عن صيغة بورجوازية مثلى في الأحكام، وكان أبو حنيفة يتطلع إلى إقامة صيغة تعالج الحاضر وتضع في اعتبارها المستقبل، ومن القرائن الدالة على أن مذهب أبى حنيفة اكتسب "صيغة بورجوازية" في الأحكام أن الآخذين به كانوا في الغالب تجاراً وحرفيين، فالمعتزلة – الذين كانوا زعماؤهم تجاراً – كانوا كذلك أحنافاً وأيضاً يعرف عنه تعاطفه وتأييده الثورات الزيدية وذلك كله يقيم الدليل على أن مذهبه في الفقه عبر تطلع القوى الثورية نحو إقرار نظام في التشريع يضمن مزيداً من تنامي المد البورجوازى، ويفسر ذلك مطالبة الفقهاء الأحناف الخلافة العباسية مراراً بإلغاء المكوس ونجاحهم في إرغامها على استصدار تشريعات لمصلحة التجار[1]، ولم يخطئ كاهن[2] حين ذهب إلى أن هؤلاء الفقهاء عبروا عن مصلحة فئة من التجار اتصلوا بها.

يتضح من هذا أن تغير نمط الإنتاج من التجاري إلى الزراعي منذ منتصف القرن الرابع الهجري وحتى السادس الهجري أدى إلى إقرار النمط الإقطاعي، وبالتالي تغيرت وجهة التشريع بما يخدم مصالح فقهاء السلطة في امتلاكهم للأراضي والثروات، مقابل فتاوى إباحة دماء وتكفير المعارضين وهذا ما حدث بالفعل زمن الغزنويين والسلاجقة، وتم سيطرة وهيمنة المذهب الأشعري، لكن بقت الخلافة العباسية تابعة للمذهب الحنفي اسماً فقط.

من ناحية أخرى لم يكن من الغريب أن نجد إشارة عن أحد المؤرخين[3] عن وجود صلة بين المذهب الشافعي السني والمذهب المعتزلى، ولاسيما أن الشافعي تتلمذ في المدينة بعد عودته من اليمن على "إبراهيم بن أبى يحيى"

---

(١) محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، ج١، ص١٧٠

(٢) تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، صـ٩٤.

(٣) مصطفى الشكعة، الأئمة الأربعة، ط٣ دار الكتاب المصري ١٤١١هـ - ١٩٩١م، ص٥٨

وهو معتزلي المذهب، وكان الشافعي يعتبره من الثقات، لعل هذا يفسر وجود التفسيرات العقلية والنظر والاستدلال في فقه وفتاوى الشافعي.

كذلك نجد إشارة أخرى لدى ابن العماد الحنبلي[1] بأن شيخ المعتزلة القاضي عبد الجبار بن أحمد عبد الجبار كان شافعي المذهب، وأصبح فيما بعد شيخ المعتزلة إلى أن توفى عام ٤١٥هـ / ١٠٢٤م.

أما عن صمود الفلسفة الإسلامية بالرغم من محاولات قمعها وقمع الفكر الحر المعارض، فإننا نبدأ بالحديث عن رواد التنوير أو أصحاب الفكر العقلاني الذي تبنى الحفاظ على التراث الفلسفي بل وسعى إلى التطوير والتجديد بصبغة إسلامية ألا وهم المعتزلة.

فيتحدث الجاحظ[2] وهو معتزلي المذهب عن قيمه وأهميه العقل بانه اشد احتياجاً من السيف وأسرع إلى التجديد والتغيير واستخدامه كقيمة في التفكير مثل الدواء الذي يقتل المرض أو السم، لا يقوى معارضوه على مقارعته لضعف حجتهم، فمن أدركه أدرك كثيراً من احتياجاته.

فرأى الجاحظ يعكس شيئاً له دلالة هامة ألا وهو كيف انعكست أهمية العقل على الواقع سواء السياسي أو الاجتماعي، فالجاحظ يشير إلى ناحية تنويرية تثويرية ومن شأنها أن ترتبط بالناحية السياسية، وبالفعل هذا ما حدث من تعضيد ومساندة المعتزلة للشيعة الزيدية في ثوراتها ضد السامانيين والخلافة العباسية السنية.

لدرجة أن دفعت أحد المؤرخين[3] إلى القول بأن القاضي عبد الجبار لم يكن بين الزيدية عالم ومحقق أبرز منه.

ولاسيما أنه من المعروف أن القاضي عبد الجبار من أعلام المعتزلة

---

(١) شذرات الذهب، ج٣، ص٢٠٣

(٢) رسائل التربيع والتدوير، تحقيق : عبد السلام هارون، ط١ . مكتبة الخانجى – مصر ٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ص١٠٤

(٣) شذرات الذهب، ج٣، ص٢٠٣

الكبار، لكن تصنيف المؤرخ له ضمن الزيدية ربما لإتفاق كبير بين المذهبين من الناحية الفكرية مما انعكس على نشاط الشيعة السياسي، ووجود اتفاق على بعض الأفكار مثل مسألة الإمامة عند الزيدية فالمعتزلة تقول بولاية المفضول مع وجود الأفضل وهذا ما تقول به الزيدية.

وقد أشار الأستاذ حسن حنفي[1] إلى أن الحضارة الإسلامية بلغت ذروتها وقت ظهور المعتزلة وسيادتها للفكر في أواخر العصر العباسي الأول وبداية الثاني أي منذ عهد الخلافة المأمون حتى مجيء الخليفة المتوكل – والذي بدأ مرحلة القمع الفكري- وهذا الاختيار الاعتزالي قد يكون أكثر تعبيراً عن حاجات العصر والواقع وأكثر تلبية لمطالبة، فقد رفض المذهب الطبيعي قديماً لأنه كان خطراً على التوحيد وفاعليته وهو مذهب أصحاب الطبائع عند الجاحظ (ت : ٢٥٥هـ/٨٦٨م)، إبراهيم النظام (ت :٢٣٠هـ/٨٤٤م)، معمر بن عباد (ت : ٢٢٠هـ/٨٣٥م).

وقد وصف حسن حنفي[2] المذهب الأشعري عند معرض حديثه عن علم الكلام بأنه الرجوع إلى النص الخام أي أنه شبه المتكلمين بوزراء الداخلية ومهمتهم الدفاع عن العقل الداخلي الذي لا يمكن له أن يتطلع إلى حضارات الغير أو فلسفاتهم، بالرغم أن نشأة علم الكلام كان هدفها تحويل النص إلى معنى والآية إلى فكرة ومحاولة العثور على نظرية عقلية خالصة للنص إلا أنه لم يحقق ذلك واكتفى بالرد على الفرق الخصوم والرد على الملاحدة، وأصبحنا أسرى للنصوص بعد أن كانت النصوص أسرى لعقول القدماء[3].

أما عن الفلسفة ونشأتها فهي تشبه وزارة الخارجية ومهمتها التعامل مع حضارات أخرى غازية والانفتاح عليها وفى مقدمتها الحضارة اليونانية، وقد حاولوا إعادة بناء العلم النظري القديم (علم الكلام) على أساس من المفاهيم الجديدة مستعملين نفس أسلحتهم التصورية، ومن ثم فإن الفلسفة من جنس علم

---

(١) التراث والتجديد، ط المركز العربي للبحث والنشر ١٩٨٠م، ص١٩

(٢) التراث و التجديد، ص١٧٩

(٣) ابن اسفنديار، تاريخ طبرستان، ص١١١

الكلام، ونجد كثيراً من المتكلمين فلاسفة وكثيراً من الفلاسفة متكلمين مثل (الكندي وابن رشد)، وقد نجحوا في ذلك إلى حد كبير وذلك أنهم استطاعوا القضاء على ظاهرة الضمور في علم الكلام، وأيضاً الاستغناء عن منهج النص السائد في علم الكلام، بالإضافة إلى كشف الجانب الرمزي في النص الديني وبالتالي تكون مهمة الفيلسوف النفاذ إلى ما وراء الخيال والقضاء على حرفية المعنى ؛ لذلك تعتبر الفلسفة تطوير للفكر الاعتزالي وللتنزيه الإلهي[١].

فضلاً عن أن الفلسفة أفق أوسع من علم الكلام، ففي حين أن علم الكلام يغلب عليه الرفض وضيق الأفق و التحيز المسبق والتعصب أحياناً، وجد أن الفلسفة يغلب عليها القبول، غير أن أهم سمة للفرق بين الاثنين أن علم الكلام يعارض الخصم ويكفره في حين أن الفيلسوف يضم الخصم في حقيقة أعلى منه[٢]، وفى هذا الصدد قد ذهب أبو حيان التوحيدي[٣] (ت: ٤١٤هـ/١٠٢٣م) بتسارع المعتزلة إلى التكفير وأنهم أكثر الفرق قذفاً لخصمه بالتكفير أعلقهم بأسباب الفسق والهتك.

لكننا نرى بعكس ما قال به التوحيدي ؛ لأن هذا متناقض لما تتضمنه الأصول الخمسة عند المعتزلة وهناك أصل يسمى "المنزلة بين المنزلتين" فمرتكب الكبيرة عند المعتزلة ليس بكافر ولا بمؤمن بل هو فاسق أي منزلة بين الكافر والمؤمن.

وإذا كانت الفلسفة قد لقيت كل الترحيب بين صفوف الشيعة، وخاصة الإسماعيلية واستخدمت بعض الآراء الفلسفية لتدعيم وجهة نظرهم في بعض القضايا، فإن هذا الأمر قد بلغ ذروته في عهد بنى بويه الذين سيطروا على الخلافة العباسية منذ عام ٣٣٤هـ / ٩٤٥م، ذلك أن البويهيين نشئوا نشأة

---

(١) حسن حنفي، نفس المرجع، ص١٨٠

(٢) حسن حنفي، التراث والتجديد، ص١٨٢

(٣) أبى حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، تحقيق : وداء القاضي، ط١ دار صادر بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ج٤، ص٢١٦

ثورية في بيئة شيعية وهم لا يرون بني العباس أصحاب حق في الخلافة، ومن ثم أرادوا أن يتخلصوا منهم، لكنهم أدركوا خطورة هذه الخطوة على كيانهم السياسي، فعدلوا عنها واستعاضوا عن ذلك بتشجيع كل حركة وكل فكر يمكن أن يسهم في إضعاف هذه الخلافة السنية[1].

كذلك وجد الفكر اليوناني ترحيباً لدى الفاطميين وتوسعوا في دراسته، ولاسيما أن الحياة العقلية في العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري وما بعده أكثر العلماء النابغين كانوا متأثرين بالآراء الشيعية، ونرى بعض الفلاسفة الذين كانوا على صلة بالتشيع مثل ابن حوقل وابن سينا وجماعة إخوان الصفا، وفيلسوف الدعوة الفاطمية وحجتها في العراق وكرمان "أحمد حميد الدين الكرمانى"[2].

ويذكر فيليب حتى[3] أن النظام الإسماعيلى يشبه الفيثاغورثية اليونانية القديمة من حيث اعتبار العدد "سبعة" مقدساً وقد جعلت السبعية النظام الكوني والحوادث التاريخية أمراً مرتباً على هذا العدد وهم يتعبون في حدوث الكائنات فلسفة (غنوصية) مبنية إلى حد ما على الأفلاطونية المحدثة ويجعلون التجليات سبعة هي : الله – العقل – النفس – المادة الأصلية – الفضاء – الزمن – عالم الأرضين والبشر.

لعل هذا انعكس أيضاً على فكرة الإمامة بأنها سبعة أئمة تتوقف عند محمد ابن إسماعيل الإمام السابع، وبالتالي أيضاً انعكس على فكرهم السياسي، مما أدى أحيانا إلى التطرف وتمثل ذلك في ظهور فرقة القرامطة.

إذن يظهر لنا بوضوح أن الشيعة ومعهم المعتزلة هم حماة الفلسفة في المشرق الإسلامي بالرغم من القمع الفكري الموجود آنذاك سواء في حقبة

---

(٤) عبد المجيد أبو الفتوح، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد ، ط١ . جدة عالم المعرفة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص٥٦ – ٥٧

(١) حسن الأمين، دائرة المعارف الشيعية، ص١٦٣

(٢) تاريخ العرب، ص٥١٥

الغزنويين أو السلاجقة الأتراك أصحاب العقلية البدوية والعسكرية[1].

ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن التعددية المذهبية والفكرية هي ناتج ضروري عن مبدأ الحرية العقلية في تفسير النص الديني وأنه حق مطلق لكل إنسان وليس من حق أي سلطة قهر هذا الحق واغتصابه كما فعل فقهاء السلطة السنية سواء الخلافة العباسية أو حراسها من الدويلات السنية[2].

قصارى القول أن الإسلام الحقيقي لم يمارس كشريعة بعد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه- إنما استغلته السلطة وفقهاؤها لتبرير وجودها فأضفت على هذا الوجود طابعاً ثيوقراطياً زائفاً ليس من الإسلام في شيء، بينما تبنت المعارضة الثورية روح الإسلام الحقيقية ونسجت منه خيوط أيديولوجيتها[3]، بل وساهمت في نبوغ ونهضة الفكر الإسلام بالرغم من محاولات القمع والإرهاب الفكري، وصمدت الفلسفة الإسلامية وأثرت الفكر بشتى أنواع المعرفة وكل هذا برعاية المعتزلة والشيعة الذين تبنوا عقلية التنوير مما أدى إلى الثورة.

---

(٣) أوليرى دى لاسى، الفكر العربي ومكانه في التاريخ، ص١٤٥

(٤) فريال حسن خليفة، أهمية العقل (الإصلاح الديني والتواصل الحضاري)، ط١ . القاهرة – مكتبة الأسرة ٢٠٠٦م، ص٥٦

(١) محمود إسماعيل، فكرة التاريخ بين الإسلام والماركسية، ص٥٤